أَجَابَتْ هايدي: «أُوه، نَعَمْ، لَنْ أَنْسَاهُ.»
سَأَلَتِ الْجَدَّةُ: «وَمَا اسْمُكِ؟»
– «أَنَا دَائِمًا أُدْعَى بِهايدي، وَلَكِنْ هُنَا يَجِبُ أَنْ أُدْعَى أديلهايد.»
قَالَتِ الْجَدَّةُ: «إِذَا كُنْتِ دَائِمًا هايدي، إِذَنْ سَيَكُونُ اسْمُكِ هايدي.» أَزْعَجَ ذَلِك السَّيِّدَةَ روتينماير الَّتِي كَانَتْ قَدْ دَخَلَتِ الْغُرْفَةَ لِتَوِّهَا.
لِبَقِيَّةِ الْأُمْسِيَةِ، اهْتَمَّتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ بِالْفَتَاتَيْنِ اهْتِمَامًا شَدِيدًا. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، بَيْنَمَا كَانَتْ كلارا تَأْخُذُ اسْتِرَاحَةَ بَعْدِ الظُّهْرِ، أَمْضَتِ الْجَدَّةُ بَعْضَ الْوَقْتِ تَتَحَدَّثُ إِلَى هايدي. لَقَدْ أَخْبَرَتْهَا السَّيِّدَةُ روتينماير أَنَّ هايدي لَا يُمْكِنُهَا التَّعَلُّمُ مِثْلَ الْأَطْفَالِ الطَّبِيعِيِّينَ، حَتَّى إِنَّ الْمُعَلِّمَ فَشِلَ فِي تَعْلِيمِهَا الْحُرُوفَ الْأَبْجَدِيَّةَ.
قَالَتِ السَّيِّدَةُ لِهايدي: «انْظُرِي إِلَى هَذِهِ الْكُتُبِ.» وَأَعْطَتِ الْفَتَاةَ كَوْمَةً صَغِيرَةً مِنَ الْكُتُبِ الْمُلَوَّنَةِ.
فِي الْبِدَايَةِ، ابْتَسَمَتْ هايدي بِفَرَحٍ. وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِك فَتَحَتِ الْكِتَابَ الثَّانِي وَأَطْلَقَتْ صَرْخَةً. حَدَّقَتْ فِيهِ لِلَحْظَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ، ثُمَّ بَدَأَتِ الدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا. وَفِي النِّهَايَةِ انْفَجَرَتْ فِي الْبُكَاءِ.
نَظَرَتِ الْجَدَّةُ إِلَى الصُّورَةِ بِعِنَايَةٍ. كَانَتْ عِبَارَةً عَنْ مَرْعًى أَخْضَرَ مَمْلُوءٍ بِالْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ، بَعْضُهَا يَرْعَى وَالْبَعْضُ الْآخَرُ يَقْضِمُ مِنَ الشُّجَيْرَاتِ. وَفِي الْمُنْتَصَفِ كَانَ رَاعٍ يَنْظُرُ إِلَى قَطِيعِهِ السَّعِيدِ.
قَالَتْ: «لَا تَبْكِي يَا صَغِيرَتِي الْعَزِيزَةَ. سَأَقْرَأُ لَكِ الْقِصَّةَ لَاحِقًا. إِنَّهَا قِصَّةٌ مُبْهِجَةٌ حَقًّا. وَلَيْسَ بِهَا حُزْنٌ إِطْلَاقًا.»
مَرَّ بَعْضُ الْوَقْتِ حَتَّى تَمَكَّنَتْ هايدي مِنَ التَّحَكُّمِ فِي بُكَائِهَا. وَقَرَّرَتِ الْجَدَّةُ أَنْ تُغَيِّرَ مَوْضُوعَ حَدِيثِهِمَا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ صُورَةِ الْكِتَابِ.
– «كَيْفَ حَالُ دُرُوسِكِ يَا هايدي؟ هَلْ تَعَلَّمْتِ الْكَثِيرَ؟»
أَجَابَتْ هايدي: «مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ أَتَعَلَّمَ شَيْئًا.»
سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ: «لِمَاذَا؟»
أَجَابَتْ هايدي: «لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ صَعْبَةٌ جِدًّا عَلَيَّ.»
سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ فِي دَهْشَةٍ: «مَنْ قَالَ لَكِ ذَلِك؟»

– «بيتر قَالَ لِي ذَلِك، وَهُوَ يَعْرِفُ بِالتَّأْكِيدِ. لَقَدْ حَاوَلَ وَحَاوَلَ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّعَلُّمِ.»

– «أُوه يَا هايدي، يَجِبُ أَلَّا تُسَلِّمِي بِمَا يَقُولُهُ بيتر. يَجِبُ أَنْ تُقَرِّرِي بِنَفْسِكِ. أَنَا مُتَأَكِّدَةٌ أَنَّكِ سَتَنْجَحِينَ إِذَا حَاوَلْتِ بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُكِ.»

هَزَّتْ هايدي رَأْسَهَا.

أَكْمَلَتِ الْجَدَّةُ: «اسْتَمِعِي لِمَا أَقُولُهُ. أَنْتِ لَمْ تَتَمَكَّنِي مِنْ تَعَلُّمِ الْحُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ لِأَنَّكِ صَدَّقْتِ مَا قَالَهُ بيتر. وَلَكِنِ الْآنَ يَجِبُ أَنْ تُصَدِّقِي مَا أَقُولُهُ. يُمْكِنُكِ تَعَلُّمُ الْقِرَاءَةِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ جِدًّا. وَاسْتَمِعِي إِلَى هَذَا، هَلْ تَرَيْنَ صُورَةَ الرَّاعِي وَالْحَيَوَانَاتِ؟ سَتَحْصُلِينَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ لِنَفْسِكِ عِنْدَمَا تَسْتَطِيعِينَ قِرَاءَتَهُ. عِنْدَئِذٍ سَتَعْرِفِينَ الْقِصَّةَ وَسَتَرَيْنَ كَمْ هِيَ سَعِيدَةٌ. يُعْجِبُكِ هَذَا، أَلَيْسَ كَذَلِك؟»

اسْتَمَعَتْ هايدي بِحَمَاسٍ إِلَى كَلِمَاتِ الْجَدَّةِ. «أُوه، لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ الْقِرَاءَةَ الْآنَ!»

أَجَابَتِ الْجَدَّةُ: «لَنْ يَسْتَغْرِقَ التَّعَلُّمُ وَقْتًا طَوِيلًا، سَنَعْمَلُ مَعًا.»

بَعْدَ بِضْعَةِ أَسَابِيعَ جَاءَ الْمُعَلِّمُ إِلَى الْجَدَّةِ بِتَقْرِيرٍ جَيِّدٍ. قَالَ: «إِنَّهَا مُعْجِزَةٌ حَقًّا! هَذَا أَكْثَرُ مِمَّا تَمَنَّيْتُ. لَقَدْ تَعَلَّمَتِ الْآنِسَةُ الصَّغِيرَةُ الْقِرَاءَةَ!»

بَعْدَ مُغَادَرَةِ الْمُعَلِّمِ، ذَهَبَتِ الْجَدَّةُ لِتَبْحَثَ عَنْ هايدي. وَبِالتَّأْكِيدِ كَانَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ تَجْلِسُ بِجَانِبِ كلارا وَتَقْرَأُ لَهَا. وَفِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ، وَجَدَتْ هايدي الْكِتَابَ الْكَبِيرَ ذَا الصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ عَلَى طَبَقِهَا فِي الْغَدَاءِ. عِنْدَمَا نَظَرَتْ إِلَى الْجَدَّةِ، قَالَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ: «نَعَمْ، إِنَّهُ لَكِ الْآنَ.»

سَأَلَتْ هايدي وَوَجْهُهَا يَحْمَرُّ فَرَحًا: «لِي لِكَيْ أَحْتَفِظَ بِهِ، حَتَّى عِنْدَمَا أَذْهَبُ إِلَى الْمَنْزِلِ؟»

قَالَتِ الْجَدَّةُ: «نَعَمْ، بِالطَّبْعِ. إِنَّهُ مِلْكُكِ لِلْأَبَدِ. غَدًا سَنَبْدَأُ فِي قِرَاءَتِهِ.»

بَدَأَتْ دُرُوسُ هايدي تَتَحَسَّنُ، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِك هُوَ التَّغْيِيرُ الْجَيِّدُ الْوَحِيدُ فِي الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ. مُنْذُ أَنْ قَالَتْ لَهَا السَّيِّدَةُ روتينماير إِنَّهَا بَغِيضَةٌ لِأَنَّهَا تُرِيدُ الرَّحِيلَ، فَقَدَتْ هايدي حَيَوِيَّتَهَا. فَهِمَتْ أَخِيرًا أَنَّهَا لَنْ تَعُودَ إِلَى مَنْزِلِهَا فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ، بَلْ إِنَّهَا رُبَّمَا لَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا. وَلَكِنَّ مُشَارَكَةَ حُزْنِهَا مَعَ كلارا وَالْجَدَّةِ سَيَبْدُو نُكْرَانًا لِلْجَمِيلِ. وَهَكَذَا زَادَ شُعُورُهَا بِالْحُزْنِ حَتَّى أَثْقَلَ قَلْبَهَا الصَّغِيرَ فَأَصْبَحَتْ لَا تَسْتَطِيعُ الْأَكْلَ. كَانَتْ تَسْتَلْقِي مُسْتَيْقِظَةً فِي

اللَّيْلِ لِسَاعَاتٍ. وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تُصْبِحَ وَحْدَهَا، كَانَتْ صُورَةُ الْجَبَلِ بِزُهُورِهِ وَشَمْسِهِ الْمُشْرِقَةِ تَتَرَاءَى أَمَامَ عَيْنَيْهَا. وَعِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ، كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا قَدْ عَادَتْ إِلَى مَنْزِلِ جَدِّهَا وَمُسْتَعِدَّةٌ لِتَحِيَّةِ الْمَعْزِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ. أَقْلَقَتْ نَظَرَاتُهَا الْحَزِينَةُ الْجَدَّةَ.

قَالَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ: «أَخْبِرِينِي يَا هايدي، مَا الْأَمْرُ؟ هَلْ أَنْتِ وَاقِعَةٌ فِي مُشْكِلَةٍ؟»

كَانَتْ هايدي تَخْشَى أَنْ تُسِيءَ السَّيِّدَةُ الظَّنَّ بِهَا إِذَا أَخْبَرَتْهَا بِالْحَقِيقَةِ. وَلَمْ تُرِدْ أَنْ تَكْرَهَهَا السَّيِّدَةُ؛ لِذَا قَالَتْ بِبَسَاطَةٍ: «لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُخْبِرَكِ.»

– «إِذَنْ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَدَّثِي إِلَى اللهِ عَنِ الْأَمْرِ. إِذَا لَمْ تَسْتَطِيعِي إِخْبَارَ أَيِّ إِنْسَانٍ، فَأَخْبِرِي اللهَ بِمَشَاكِلِكِ. وَصَلِّي لَهُ لِكَيْ يُسَاعِدَكِ.»

أَجَابَتْ هايدي: «لَمْ أَعُدْ أُصَلِّي.»

– «لَا تَقُولِي لِي هَذَا يَا هايدي! لِمَاذَا تَوَقَّفْتِ عَنِ الصَّلَاةِ؟»

– «لَا فَائِدَةَ مِنْ ذَلِك! اللهُ لَا يَسْمَعُ. لَقَدْ صَلَّيْتُ مِنْ أَجْلِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ لِأَسَابِيعَ وَلَمْ يَفْعَلِ اللهُ مَا طَلَبْتُهُ.» ثُمَّ نَكَّسَتِ الْفَتَاةُ رَأْسَهَا.

– «أَنْتِ مُخْطِئَةٌ يَا هايدي. يَجِبُ أَلَّا تُفَكِّرِي فِيهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. اللهُ كَرِيمٌ مَعَنَا جَمِيعًا. إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا نَحْتَاجُهُ أَكْثَرَ مِنَّا. وَمُجَرَّدُ أَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا يُعْطِيَكِ مَا تُرِيدِينَهُ الْآنَ لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَكِ. سَتَحْصُلِينَ عَلَى مَا تَطْلُبِينَ وَلَكِنْ لَيْسَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ.»

قَالَتْ هايدي: «سَأَذْهَبُ الْآنَ وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ أَنْ يُسَامِحَنِي.»

– «اذْهَبِي يَا صَغِيرَةُ. سَيُسَاعِدُكِ وَيُعْطِيكِ كُلَّ مَا سَيَجْعَلُكِ سَعِيدَةً مَرَّةً أُخْرَى.»

رَكَضَتْ هايدي مِنْ غُرْفَةِ الْجَدَّةِ إِلَى غُرْفَتِهَا. وَجَلَسَتْ عَلَى مَقْعَدٍ صَغِيرٍ، وَضَمَّتْ يَدَيْهَا مَعًا ثُمَّ أَخْبَرَتِ اللهَ بِكُلِّ مَا يَجْلِبُ لَهَا الْحُزْنَ. تَوَسَّلَتْ لَهُ أَنْ يُسَاعِدَهَا وَيُرْجِعَهَا إِلَى جَدِّهَا. لَمْ تَكُنْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُمْكِنُهَا التَّحَمُّلُ أَكْثَرَ. كَانَتْ تَفْتَقِدُ الْمَنْزِلَ بِشِدَّةٍ.

الفصل الحادي عشر

شَبَحٌ فِي الْمَنْزِلِ

أَخِيرًا جَاءَ يَوْمُ رَحِيلِ الْجَدَّةِ. كَانَ هذا وَقْتًا حَزِينًا بِالنِّسْبَةِ لِكلارا وَهايدي. مَضَتِ الْأَسَابِيعُ وَكَانَتِ الْبَهْجَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَعْرِفُهَا هايدي هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي كَانتْ تَقْرَأُهُ فِي غُرْفَتِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ. بَدَا أَنَّ آمَالَهَا فِي رُؤْيَةِ جَدِّهَا وَبَقِيَّةِ الْجَبَلِ قَدْ بَدَأَتْ تَتَبَدَّدُ قَلِيلًا كُلَّ يَوْمٍ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ شَيءٌ غَرِيبٌ وَغَامِضٌ يَحْدُثُ فِي مَنْزِلِ آلِ سيسمان. كُلَّ صَبَاحٍ عِنْدَمَا يَنْزِلُ الْخَدَمُ كَانُوا يَجِدُونَ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ مَفْتُوحًا عَلَى مِصْرَاعَيْهِ. لَمْ يَكُنْ أَيُّ أَحَدٍ فِي الْمَنْزِلِ يَعْلَمُ السَّبَبَ. فِي الْبِدَايَةِ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِصٌّ يَتَسَلَّلُ إِلَى الدَّاخِلِ وَلَكِنْ لَمْ يُفْقَدْ أَيُّ شَيْءٍ. كَانَ الْخَدَمُ يَتَأَكَّدُونَ مِنْ إِغْلَاقِ الْبَابِ مَرَّتَيْنِ فِي اللَّيْلَةِ. حَتَّى إِنَّ سيباستيان كَانَ يَضَعُ قَضِيبًا خَشَبِيًّا عَلَيْهِ لِمَزِيدٍ مِنَ التَّأْمِينِ، لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يُفْلِحْ أَيْضًا. وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي، يَكُونُ الْبَابُ مَفْتُوحًا كَالْعَادَةِ.

تَبَادَلَ الْخَدَمُ الْأَدْوَارَ لِحَلِّ اللُّغْزِ. لَكِنْ بَدَأَ الْكِبَارُ — وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ — يَفْقِدُونَ الْأَمَلَ وَالشَّجَاعَةَ. هَلْ كَانَ ثَمَّةَ غُرَبَاءُ يُحَاوِلُونَ التَّسَلُّلَ فِي اللَّيْلِ؟ هَلْ كَانَ ثَمَّةَ أَشْبَاحٌ أَوْ أَرْوَاحٌ أُخْرَى تَجُوبُ الْمَنْزِلَ؟ فِي النِّهَايَةِ، لَمْ تَعُدِ السَّيِّدَةُ روتينماير تَتَحَمَّلُ أَكْثَرَ وَقَرَّرَتْ أَنْ تَكْتُبَ خِطَابًا لِلسَّيِّدِ سيسمان. كَانَ الْخِطَابُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْمَنْزِلِ وَيَشْرَحُ كَيْفَ أَنَّهَا هِيَ وَالْآخَرِينَ خَائِفُونَ. كَمَا قَالَتْ لَهُ إِنَّ كلارا كَانتْ مُنْزَعِجَةً جِدًّا بِسَبَبِ الشَّبَحِ. وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَتْ كلارا وَهايدي تَجِدَانِ قِصَّةَ الشَّبَحِ سَخِيفَةً جِدًّا.

نَجَحَ الْخِطَابُ فِي مهِمَّتِهِ، وَحَضَرَ السَّيِّدُ سيسمان إِلَى الْمَنْزِلِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَتَحَدَّثَ إِلَى الْفَتَاتَيْنِ وَإِلَى كُلِّ الْخَدَمِ فِي الْمَنْزِلِ. بَعْدَ ذَلِكَ، اتَّصَلَ بِصَدِيقِهِ الطَّبِيبِ.

قَالَ لِلرَّجُلِ عِنْدَمَا حَضَرَ: «لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مَرِيضٌ بِالْمَنْزِلِ، هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ يَا صَدِيقِي، لَدَيْنَا شَبَحٌ!»

ضَحِكَ الطَّبِيبُ بِصَوْتٍ عَالٍ.

أَكْمَلَ السَّيِّدُ سيسمان: «أَرَى أَنَّكَ تَشْعُرُ بِالسُّوءِ مِنْ أَجْلِنَا.»

– «حَقًّا يَا سيسمان، شَبَحٌ؟»

– «أَعْلَمُ، أَعْلَمُ. أَنَا نَفْسِي أَشُكُّ فِي هَذَا.» وَأَخْبَرَهُ السَّيِّدُ سيسمان أَنَّ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ كَانَ يُفْتَحُ كُلَّ لَيْلَةٍ. فَإِمَّا أَنَّ أَحَدًا مَا يَقُومُ بِدُعَابَةٍ عَلَى الْخَدَمِ أَوْ أَنَّ هُنَاكَ لِصًّا حَقًّا.

وَأَخِيرًا وَافَقَ الطَّبِيبُ عَلَى الْمُسَاعَدَةِ. وَبِالْقُرْبِ مِنْ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ جَلَسَ الرَّجُلَانِ فِي مَقْعَدَيْنِ وَثِيرَيْنِ وَبَدَآ فِي التَّحَدُّثِ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ. وَضَحِكَا عَلَى الْحَدِيثِ عَنِ الشَّبَحِ وَثَرْثَرَا بِسَعَادَةٍ عَنِ الْأَيَّامِ الْخَوَالِي.

فَجْأَةً رَفَعَ الطَّبِيبُ إِصْبَعَهُ.

– «صَهٍ! سيسمان، هَلْ تَسْمَعُ شَيْئًا؟»

أَنْصَتَ الِاثْنَانِ. كَانَا مُتَأَكِّدَيْنِ أَنَّهُمَا سَمِعَا شَخْصًا مَا يُنْزِلُ الْقَضِيبَ الْخَشَبِيَّ مِنْ عَلَى الْبَابِ وَيَضَعُ الْمِفْتَاحَ فِي الْقُفْلِ. قَامَ السَّيِّدُ سيسمان بِبُطْءٍ.

صَاحَ الطَّبِيبُ وَهُوَ يَنْهَضُ: «مَنْ هُنَاكَ؟» وَتَقَدَّمَ الرَّجُلَانِ إِلَى الْأَمَامِ مُوَجِّهَيْنِ الْمِشْعَلَ صَوْبَهُ.

اسْتَدَارَ الْجَسَدُ الصَّغِيرُ الَّذِي رَأَيَاهُ وَأَطْلَقَ صَرْخَةً مُنْخَفِضَةً. هُنَاكَ كَانَتْ هايدي تَقِفُ فِي ثَوْبِ نَوْمِهَا الْأَبْيَضِ. كَانَتْ قَدَمَاهَا حَافِيَتَيْنِ وَعَيْنَاهَا تَائِهَتَيْنِ. كَانَتْ تَرْتَجِفُ مِنْ رَأْسِهَا حَتَّى أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا كَوَرَقَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ. نَظَرَ الرَّجُلَانِ إِلَى بَعْضِهِمَا فِي دَهْشَةٍ.

سَأَلَ السَّيِّدُ سيسمان: «يَا صَغِيرَةُ، مَاذَا تَحْتَاجِينَ؟ لِمَاذَا نَزَلْتِ إِلَى هُنَا؟»

كَانَ وَجْهُ هايدي شَاحِبًا مِنَ الْخَوْفِ وَبِالْكَادِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْطِقَ بِصَوتٍ مَسْمُوعٍ: «لَا أَعْلَمُ.»

تَقَدَّمَ الطَّبِيبُ مِنَ الطِّفْلَةِ قَائِلًا: «هَذِهِ الطِّفْلَةُ مَرِيضَةٌ يَا صَدِيقِي. دَعْنِي آخُذْهَا إِلَى غُرْفَتِهَا.»

وَبِهَذَا أَنْزَلَ مِشْعَلَهُ، وَأَخَذَ يَدَ الطِّفْلَةِ وَقَادَهَا إِلَى أَعْلَى. «لَا تَخَافِي. كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ. لِنَذْهَبْ فِي هُدُوءٍ.»

عِنْدَمَا وَصَلَ الطَّبِيبُ إِلَى غُرْفَةِ هايدي، أَخَذَ هايدي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَوَضَعَهَا فِي الْفِرَاشِ. وَغطَّاهَا بِرفْقٍ ثُمَّ جَلَسَ بِجَانِبِهَا لِيَنْتَظِرَ حَتَّى تَتَوَقَّفَ عَنْ الِارْتِجَافِ. ثُمَّ أَخَذَ يَدَهَا وَقَالَ فِي صَوْتٍ هَادِئٍ مُطَمْئِنٍ، «اهْدَئِي، اهْدَئِي، الْآنَ تَشْعُرِينَ بِتَحَسُّنٍ. أَخْبِرِينِي إِلَى أَيْنَ كُنْتِ تُحَاوِلِينَ الذَّهَابَ.»

قَالَتْ هايدي: «لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ. لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنِّي ذَهَبْتُ إِلَى الْأَسْفَلِ، وَلَكِنْ فَجْأَةً وَجَدْتُ نَفْسِي هُنَاكَ.»

– «فَهِمْتُ. وَهَلْ كُنْتِ تَحْلُمِينَ؟»

– «نَعَمْ. أَحْلُمُ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَدَائِمًا حَوْلَ نَفْسِ الْأَشْيَاءِ. أَعْتَقِدُ أَنِّي قَدْ عُدْتُ مَعَ جَدِّي. وَأَسْمَعُ الرِّيَاحَ تَمُرُّ بِأَشْجَارِ التَّنُّوبِ فِي الْخَارِجِ وَأَرَى النُّجُومَ تَبْرُقُ بَرِيقًا لَامِعًا، فَأَفْتَحُ الْبَابَ بِسُرْعَةٍ وَأَجْرِي خَارِجَةً. كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ جِدًّا! وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَسْتَيْقِظُ، أَجِدُنِي مَا زِلْتُ فِي فرانكفورت.» جَاهَدَتْ هايدي لِكَيْ تَمْنَعَ الشَّهَقَاتِ الَّتِي بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَخْنُقُهَا.

سَأَلَ الطَّبِيبُ: «هَلْ لَدَيْكِ أَلَمٌ فِي رَأْسِكِ أَوْ ظَهْرِكِ؟»

– «لَا، فَقَطِ أشعر وَكَأَنَّ هُنَاكَ صَخْرَةً كَبِيرَةً تَجْثِمُ فَوْقِي.»

عَبَسَ الطَّبِيبُ: «كَأَنَّكِ أَكَلْتِ شَيْئًا وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى مَعِدَتِكِ؟»

أَجَابَتْ هايدي: «لَا، لَيْسَ كَذَلِكَ. كَأَنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أَبْكِيَ بِشِدَّةٍ.»

قَالَ الطَّبِيبُ: «أَفْهَمُ ذَلِك. هَلْ تَبْكِينَ كَثِيرًا؟»

قَالَتْ هايدي: «أُوه، لَا. قَالَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير إِنَّهُ غَيْرُ مَسْمُوحٍ لِي بِالْبُكَاءِ.»

سَأَلَ الطَّبِيبُ: «إِذَنْ أَنْتِ تَكْتُمِينَ الْبُكَاءَ بَدَلًا مِنَ التَّنْفِيسِ عَنْهُ؟»

– «أَجَلْ.»

– «وَأَيْنَ كُنْتِ تَعِيشِينَ مَعَ جَدِّكِ؟»

– «أَعْلَى فِي الْجَبَلِ.»

سَأَلَ الرَّجُلُ: «أكان هَذَا مُمِلًّا وَمُضْجِرًا؟»

– «أُوه، لَا. لَقَدْ كَانَ جَمِيلًا.» لَمْ تَتَمَكَّنْ هايدي مِنَ الْحَدِيثِ أَكْثَرَ. بَدَأَتِ الدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا بِسُرْعَةٍ وَانْخَرَطَتْ فِي نَوْبَةِ بُكَاءٍ عَنِيفَةٍ.

وَقَفَ الطَّبِيبُ وَأَرَاحَ رَأْسَهَا عَلَى الْوِسَادَةِ: «حَسَنًا، حَسَنًا. اسْتَمِرِّي فِي الْبُكَاءِ. سَيُفِيدُكِ، بَعْدَ ذَلِك نَامِي. سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ أَفْضَلَ غَدًا.»

تَرَكَ الْغُرْفَةَ وَنَزَلَ لِلْأَسْفَلِ إِلَى السَّيِّدِ سيسمان.

– «صَغِيرَتُكَ تَمْشِي وَهِيَ نَائِمَةٌ. هِيَ الشَّبَحُ الَّذِي فَتَحَ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ وَأَرْعَبَ الْجَمِيعَ فِي مَنْزِلِكَ. الطِّفْلَةُ تَحِنُّ إِلَى مَنْزِلِهَا. يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا فِي الْحَالِ. هُنَاكَ عِلَاجٌ وَاحِدٌ لِذَلِكَ. يَجِبُ أَنْ تَعُودَ إِلَى الْجَبَلِ. يَجِبُ أَنْ تَرْحَلَ الْفَتَاةُ مِنْ هُنَا غَدًا.»

وَقَفَ السَّيِّدُ سيسمان وَمَشَى عَبْرَ الْغُرْفَةِ ذَهَابًا وَإِيَابًا.

ثم هَتَفَ: «مَاذَا! الطِّفْلَةُ تَمْشِي وَهِيَ نَائِمَةٌ وَمَرِيضَةٌ؟ كُلُّ هَذَا حَدَثَ فِي مَنْزِلِي وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ؟ هَلْ تَعْنِي يَا دكتور أَنَّ الْفَتَاةَ جَاءَتْ إِلَى هُنَا سَعِيدَةً وَبِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ وَسَأُعِيدُهَا إِلَى جَدِّهَا فَتَاةً صَغِيرَةً بَائِسَةً وَمَرِيضَةً؟ لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ! اجْعَلِ الْفَتَاةَ تَتَحَسَّنُ وَعِنْدَئِذٍ نُعِيدُهَا.»

رَدَّ الطَّبِيبُ: «سيسمان، فَكِّرْ فِيمَا تَقُولُهُ. لَا يُمْكِنُكَ مُعَالَجَةُ الْفَتَاةِ بِالدَّوَاءِ. هَذِهِ الطِّفْلَةُ قَوِيَّةٌ. فَلَو أَعَدْتَهَا فَوْرًا، يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَسَّنَ فِي هَوَاءِ الْجَبَلِ الْمُنْعِشِ، وَلَكِنْ إِنِ انْتَظَرْتَ، يُمْكِنُ أَلَّا تَتَحَسَّنَ أَبَدًا.»

وَقَفَ السَّيِّدُ سيسمان بِلَا حِرَاكٍ. كَلِمَاتُ الطَّبِيبِ كَانَتْ صَادِمَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ.

– «إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ يَا دكتور، إِذَنْ لَا يُوجَدُ سِوَى خِيَارٍ وَاحِدٍ. سَتَرْحَلُ الْفَتَاةُ غَدًا.» فَكَّرَ السَّيِّدُ سيسمان وَالطَّبِيبُ لِفَتْرَةٍ فِي مَا سَوْفَ يَفْعَلَانِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَرَحَلَ الطَّبِيبُ بَيْنَمَا كَانَ نُورُ الصَّبَاحِ يَتَسَلَّلُ إِلَى دَاخِلِ الْمَنْزِلِ. كَانَتْ خُطَطُ رِحْلَةِ عَوْدَةِ هايدي إِلَى وَطَنِهَا قَدْ وُضِعَتْ بِالْفِعْلِ.

الفصل الثاني عشر

الْعَوْدَةُ إِلَى الْمَنْزِلِ

جَابَ السَّيِّدُ سيسمان أَرْجَاءِ الْمَنْزِلِ فِي سُرْعَةٍ؛ فَطَرَقَ الْأَبْوَابَ وَاسْتَدْعَى الْخَدَمَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا السَّاعَةَ الرَّابِعَةَ صَبَاحًا، كَانَ مِنَ السَّهْلِ فَهْمُ أَنَّهُ يُرِيدُ كُلَّ مَنْ فِي الْمَنْزِلِ أَنْ يَسْتَيْقِظُوا.

اسْتَيْقَظَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير مِنْ نَوْمِهَا بِصَرْخَةِ خَوْفٍ. سَمِعَتِ السَّيِّدَ يُنَادِيهَا مُطَالِبًا إِيَّاهَا بِأَنْ تَرْتَدِيَ مَلَابِسَهَا وَتُلَاقِيَهُ فِي غُرْفَةِ الطَّعَامِ. اعْتَقَدَتْ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِالشَّبَحِ الَّذِي كَانُوا جَمِيعًا قَلِقِينَ مِنْهُ. وَلَمْ تَكْتَشِفِ السَّيِّدَةُ السَّبَبَ وَرَاءَ هَذَا الِاجْتِمَاعِ إِلَّا بَعْدَ عِدَّةِ دَقَائِقَ.

قَالَ السَّيِّدُ سيسمان فِي مِزَاجٍ طَيِّبٍ: «نَحْنُ نُحَضِّرُ لِرِحْلَةٍ. جون، جَهِّزِ الْأَحْصِنَةَ وَالْعَرَبَةَ. تينيت، اذْهَبِي وَأَيْقِظِي هايدي وَأَلْبِسِيهَا مَلَابِسَهَا مِنْ أَجْلِ رِحْلَتِهَا. سيباستيان، أَسْرِعْ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ ديتا وَأَحْضِرْهَا إِلَى هُنَا. سَيِّدَةُ روتينماير، أَحْضِرِي صُنْدُوقًا فَوْرًا، وَاحْزِمِي كُلَّ مَا يَخُصُّ الطِّفْلَةَ السِّويسْرِيَّةَ، وَأَضِيفِي بَعْضًا مِنْ أَغْرَاضِ كلارا أَيْضًا حَتَّى تَذْهَبَ الْفَتَاةُ إِلَى الْمَنْزِلِ بِمَلَابِسَ جَمِيلَةٍ. وَلَكِنِ افْعَلِي ذَلِك الْآنَ!»

وَقَفَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير بِلَا حِرَاكٍ مُحَدِّقَةً إِلَى الْأَمَامِ. لَقَدْ تَوَقَّعَتْ قِصَّةً طَوِيلَةً عَنْ شَبَحٍ، كَانَتْ بِالتَّأْكِيدِ سَتَسْتَمْتِعُ بِهَا الْآنَ وَقَدْ جَاءَ الصَّبَاحُ. عِوَضًا عَنْ ذَلِكَ، تَلَقَّتْ تِلْكَ التَّعْلِيمَاتِ الْغَرِيبَةَ. كَانَتْ لَا تَزَالُ شَارِدَةً عِنْدَمَا رَحَلَ السَّيِّدُ سيسمان لِيَرَى كلارا.

كَمَا تَوَقَّعَ، كَانَتِ الْفَتَاةُ الْمِسْكِينَةُ مُسْتَاءَةً جِدًّا مِنْ فِكْرَةِ رَحِيلِ صَدِيقَتِهَا. وَلَكِنْ وَهِيَ تَسْتَمِعُ إِلَى كَلِمَاتِ وَالِدِهَا، فَهِمَتْ كلارا أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا هُوَ فِي صَالِحِ هايدي.

– «مِنْ فَضْلِكَ يَا أَبِي، لَا تَتْرُكْهَا تَرْحَلُ حَتَّى أَحْزِمَ لَهَا بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْخَاصَّةِ فِي صُنْدُوقِهَا.»

ابْتَسَمَ وَالِدُ كلارا وَغَمَزَ لَهَا لِيُعْلِمَهَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ مِنْ ذَلِك. فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، جَاءَتْ ديتا وَأَخْبَرَهَا السَّيِّدُ سيسمان عَنْ هايدي. طَلَبَ مِنْ ديتا أَنْ تَأْخُذَ الْفَتَاةَ إِلَى جَدِّهَا. وَلَكِنَّ الشَّابَّةَ تَذَكَّرَتْ كَيْفَ أَلْقَاهَا الرَّجُلُ الْعَجُوزُ خَارِجَ مَنْزِلِهِ. لَمْ تَكُنْ تُرِيدُ أَنْ تُوَاجِهَهُ مَرَّةً أُخْرَى! فَأَخْبَرَتِ السَّيِّدَ سيسمان أَنَّهَا مَشْغُولَةٌ جِدًّا فِي وَظِيفَتِهَا وَلَا تَسْتَطِيعُ الْمُغَادَرَةَ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيِّ.

قَالَ السَّيِّدُ سيسمان إِنَّهُ يَتَفَهَّمُ. وَأَرْسَلَ ديتا فِي طَرِيقِهَا وَاسْتَدْعَى سيباستيان. هُوَ سَيُوَصِّلُ الْفَتَاةَ. أَعْطَاهُ السَّيِّدُ سيسمان رِسَالَةً إِلَى جَدِّ هايدي يَشْرَحُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَتْ هايدي تَقِفُ بِهُدُوءٍ عَلَى الْجَانِبِ. كَانَتْ تَرْتَدِي أَفْضَلَ مَلَابِسِهَا الْخَاصَّةِ بِيَوْمِ الْأَحَدِ وَتَنْتَظِرُ لِترَى مَاذَا يَحْدُثُ. كَانَتْ تينيت قَدْ أَيْقَظَتْهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقُلْ لَهَا لِمَاذَا. عِنْدَمَا قَابَلَهَا السَّيِّدُ سيسمان عَلَى طَاوِلَةِ الْإِفْطَارِ، نَظَرَ إِلَى عَيْنَيْهَا بِحَمَاسٍ وَقَالَ: «مَا رَأْيُكِ فِي كُلِّ هَذَا يَا صَغِيرَتِي؟»

أَجَابَتْهُ هايدي بِنَظْرَةٍ حَائِرَةٍ.

ضَحِكَ السَّيِّدُ سيسمان وَقَالَ: «مَاذَا! أَنْتِ لَا تَعْلَمِينَ شَيْئًا عَنْهُ كَمَا أَرَى. أَنْتِ ذَاهِبَةٌ إِلَى مَنْزِلِكِ الْيَوْمَ. سَتَذْهَبِينَ فَوْرًا!»

هَمَسَتْ هايدي بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «إِلَى الْمَنْزِلِ؟»

– «أَلَا تُرِيدِينَ مَعْرِفَةَ الْمَزِيدِ عَنْ ذَلِك؟»

هَتَفَتْ هايدي: «أُوه، بَلَى، بَلَى.» فِي الدَّقَائِقِ التَّالِيَةِ لَمْ تَكُنِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ تَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَتْ مُسْتَيْقِظَةً أَمْ أَنَّهَا تَحْلُمُ. حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى السَّيِّدِ سيسمان وَلَكِنْ كُلُّ مَا كَانَتْ تَسْتَطِيعُ التَّفْكِيرَ فِيهِ هُوَ الْجَدَّةُ وَجَدُّهَا وَبيتر وَالْمَعْزُ وَالْجَبَلُ و...

طَلَبَتْ كلارا رُؤْيَةَ هايدي وَمَلَأَتْ صُنْدُوقَهَا بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ. كَانَ هُنَاكَ فَسَاتِينُ، وَمَآزِرُ، وَمَنَادِيلُ وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ.

وَأَضَافَتْ كلارا وَهِيَ تُمْسِكُ بِسَلَّةٍ: «وَانْظُرِي هُنَا.» نَظَرَتْ هايدي إِلَى دَاخِلِ السَّلَّةِ وَقَفَزَتْ مِنَ الْفَرْحَةِ. فِي الدَّاخِلِ كَانَ يُوجَدُ اثْنَا عَشَرَ رَغِيفًا مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ لِلْجَدَّةِ. وَفِي غَمْرَةِ السَّعَادَةِ نَسِيَتِ الْفَتَاتَانِ أَنَّهُ حَانَ وَقْتُ فِرَاقِهِمَا. وَعِنْدَمَا صَاحَ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْعَرَبَةَ جَاهِزَةٌ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ وَقْتٍ لِلْحُزْنِ.

رَكَضَتْ هايدي لِتُحْضِرَ كِتَابَهَا الْمُفَضَّلِ، الَّذِي أَعْطَتْهَا إِيَّاهُ الْجَدَّةُ. كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَحْزِمْهُ ضِمْنَ أَغْرَاضِهَا لِأَنَّهُ كَانَ تَحْتَ وِسَادَتِهَا. وَضَعَتِ الْكِتَابَ فِي السَّلَّةِ مَعَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ. ثُمَّ فَتَحَتْ خِزَانَتَهَا لِتَبْحَثَ عَنْ كَنْزٍ آخَرَ لَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي حَزْمِهِ، الشَّالُ الْأَحْمَرُ الْقَدِيمُ الَّذِي أَحْضَرَتْهُ مَعَهَا. لَفَّتْهُ الْفَتَاةُ حَوْلَ قِطَّةٍ لُعْبَةٍ مَحْشُوَّةٍ صَنَعَتْهَا لَهَا كلارا وَوَضَعَتْهُ فَوْقَ السَّلَّةِ. ثُمَّ ارْتَدَتْ قُبَّعَتَهَا وَتَرَكَتِ الْغُرْفَةَ. وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَرْكَبُ الْعَرَبَةَ، قَدَّمَتْ لِكلارا أَطْيَبَ أُمْنِيَّاتِهَا وَشَكَرَتِ السَّيِّدَ سيسمان عَلَى لُطْفِهِ، كَمَا طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُوَصِّلَ شُكْرَهَا إِلَى الطَّبِيبِ. كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِتَذْهَبَ إِلَى الْمَنْزِلِ لَوْلَاهُ وَلَوْلَا وَعْدُهُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَكُونُ عَلَى مَا يُرَامُ غَدًا.

بَدَأَتِ الْعَرَبَةُ تَتَحَرَّكُ وَانْطَلَقَتْ هايدي فِي طَرِيقِهَا. تَمَسَّكَتِ بِسَلَّتِهَا جَيِّدًا عَلَى رِجْلِهَا. وَجَلَسَتْ لِسَاعَاتٍ عَدِيدَةٍ دُونَ حَرَكَةٍ كَالْفَأْرِ. كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَتَحَرَّكَ كَيْلَا تَسْتَيْقِظَ مِنَ الْحُلْمِ. لَمْ تَسْتَطِعْ تَصْدِيقَ أَنَّهَا أَخِيرًا مُتَّجِهَةٌ إِلَى الْمَنْزِلِ.

عِنْدَمَا انْتَهَوْا مِنْ رِحْلَةِ الْقِطَارِ، اسْتَأْجَرَ سيباستيان حِصَانًا وَعَرَبَةً لِيَأْخُذَ هايدي إِلَى أَبْعَدِ مَا يُمْكِنُ، ثم سَتُكْمِلُ هِيَ بَاقِيَ الرِّحْلَةِ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ. طَمْأَنَتْهُ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ أَنَّهَا سَتَتَمَكَّنُ مِنْ إِيجَادِ طَرِيقِهَا صُعُودًا إِلَى الْجَبَلِ بِسُهُولَةٍ. وَسَيُحْضِرُ جَدُّهَا صُنْدُوقَهَا لَاحِقًا. أَخَذَهَا سيباستيان عَلَى انْفِرَادٍ وَأَعْطَاهَا الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ لِجَدِّهَا، كَمَا أَعْطَاهَا أَيْضًا لِفَافَةً صَغِيرَةً، قَالَ إِنَّهَا هَدِيَّةٌ مِنَ السَّيِّدِ سيسمان. وَضَعَتْ كِلَا الشَّيْئَيْنِ فِي السَّلَّةِ تَحْتَ أَرْغِفَةِ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ حَتَّى لَا تَفْقِدَهُمَا. وَلَوَّحَ سيباستيان وَهُوَ يَرَى الْفَتَاةَ الْمُبْتَسِمَةَ تَنْطَلِقُ بَعِيدًا.

عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْقَرْيَةِ، قَفَزَتْ هايدي مِنَ الْعَرَبَةِ، وَقَالَتْ لِلسَّائِقِ إِنَّ جَدَّهَا سَيُرْسِلُ لِإِحْضَارِ الصُّنْدُوقِ وَبَدَأَتْ طَرِيقَهَا صُعُودًا إِلَى الْجَبَلِ.

بَدَا أَنَّ سَاعَاتٍ قَدْ مَرَّتْ، وَلَكِنْ أَخِيرًا لَمَحَتْ هايدي مَنْظَرَ مَنْزِلِ الْجَدَّةِ. وَبَدَأَ قَلْبُهَا يَخْفِقُ بِصَوْتٍ أَعْلَى وَأَخَذَتْ تَجْرِي أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ. ارْتَجَفَتْ وَهِيَ تَمُدُّ يَدَهَا إِلَى الْبَابِ.

قَالَ صَوْتٌ مِنَ الدَّاخِلِ: «أُوه! يَا إِلَهِي! إِنَّهَا الطَّرِيقَةُ الَّتِي اعْتَادَتْ هايدي أَنْ تَرْكُضَ بِهَا إِلَى الدَّاخِلِ. كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ هُنَا مَعِي مَرَّةً أُخْرَى.»

صَاحَتْ هايدي: «إِنَّهُ أَنَا يَا جَدَّتِي!» رَكَضَتْ وَأَلْقَتْ بِذِرَاعَيْهَا حَوْلَ السَّيِّدَةِ. سَالَتْ دُمُوعُ الْفَرْحَةِ عَلَى وَجْنَتَي السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ.

– «نَعَمْ، نَعَمْ، هَذَا هُوَ شَعْرُهَا وَصَوْتُهَا. شُكْرًا لَكَ يَا رَبِّ! لَقَدِ اسْتَجَبْتَ لِدَعَوَاتِي!»
انْهَمَرَتْ دُمُوعُ الْفَرَحِ مِنَ الْعُيُونِ الْعَمْيَاءِ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى يَدِ هايدي: «هَلْ هَذِهِ أَنْتِ حَقًّا يَا هايدي؟ هَلْ عُدْتِ حَقًّا؟»

أَجَابَتْ هايدي: «نَعَمْ يَا جَدَّتِي. أَنَا هُنَا حَقًّا. لَا تَبْكِي. أَنَا هُنَا حَقًّا.» ثُمَّ ضَغَطَتِ الْفَتَاةُ بِيَدِ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ عَلَى وَجْنَتَيْهَا. لَقَدْ كَانَ شُعُورًا افْتَقَدَتْهُ مِرَارًا وَتَكْرَارًا عَلَى مَدَارِ الشُّهُورِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ.

الفصل الثالث عشر

فِي المَنْزِلِ أَخِيرًا

أَمْضَتْ هايدي مَا يَكْفِي مِنَ الْوَقْتِ عِنْدَ الْجَدَّةِ لِتَتَأَكَّدَ أَنَّهَا بِخَيْرٍ وَلِتُعْطِيَهَا بَعْضًا مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ الَّذِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ بِحِرْصٍ شَدِيدٍ.

قَالَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ وَهِيَ تَقْضِمُ رَغِيفًا: «لَمْ أَذُقْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك أَبَدًا. وَلَكِنَّ الْمُتْعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ اسْتِعَادَتُكِ. احْتَضَنَتْ هايدي السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ حِضْنًا أَخِيرًا وَوَعَدَتْ أَنْ تَأْتِيَ لِزِيَارَتِهَا غَدًا. الْآنَ كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْمَنْزِلِ لِجَدِّهَا. لَمْ تَكُنِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ قَادِرَةً عَلَى تَحَمُّلِ فِكْرَةِ أَنْ تَكُونَ بِهَذَا الْقُرْبِ مِنْ جَدِّهَا دُونَ أَنْ تَرَاهُ.

صَعِدَتْ هايدي الْجَبَلَ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ حَتَّى إِنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى كُوخِ جَدِّهَا فِي غُضُونِ دَقَائِقَ. وَقَبْلَ أَنْ يَتَّسِعَ الْوَقْتُ لِيَرَى الرَّجُلُ الْعَجُوزُ مَنِ الْقَادِمُ، أَسْرَعَتْ هايدي نَحْوَهُ، وَأَلْقَتْ بِسَلَّتِهَا وَلَفَّتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَ عُنُقِهِ. وَظَلَّتْ تُرَدِّدُ: «جَدِّي، جَدِّي!»

لَمْ يَقُلِ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ شَيْئًا. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَعْوَامٍ كَانَتْ عَيْنَاهُ دَامِعَتَيْنِ وَكَانَ عَلَيْهِ مَسْحُهُمَا. فَكَّ ذِرَاعَيْ هايدي مِنْ حَوْلِ عُنُقِهِ وَأَجْلَسَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ. وَنَظَرَ لَهَا لِلَحْظَةٍ ثُمَّ قَالَ: «إِذَنْ لَقَدْ عُدْتِ إِلَيَّ يَا هايدي. هَلْ طَرَدُوكِ؟»

قَالَتْ هايدي: «أُوه، لَا يَا جَدِّي.»

قَضَتِ الدَّقَائِقَ التَّالِيَةَ تُخْبِرُهُ عَنْ كلارا وَالسَّيِّدِ سيسمان. ثُمَّ أَعْطَتْهُ الْخِطَابَ وَرَاقَبَتْهُ وَهُوَ يَقْرَؤُهُ.

– «لَقَدْ أَعْطَاكِ مَالًا كَافِيًا لِشِرَاءِ فِرَاشٍ وَمَلَابِسَ تَكْفِيكِ لِعِدَّةِ أَعْوَامٍ.»

– «لَا أَحْتَاجُهُ يَا جَدِّي. لَدَيَّ فِرَاشٌ بِالْفِعْلِ. وَوَضَعَتْ كلارا الْكَثِيرَ مِنَ الْمَلَابِسِ فِي صُنْدُوقِي. لَنْ أَحْتَاجَ لِلْمَزِيدِ أَبَدًا.»

قَالَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ: «ضَعِيهِ فِي الْخِزَانَةِ إِذَنْ. أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّكِ سَتُرِيدِينَهُ يَوْمًا مَا.»

فَجْأَةً، سَمِعَتْ هايدي صَوْتَ صَفِيرٍ حَادٍّ فِي الْخَارِجِ، فَوَثَبَتْ إِلَى الْخَارِجِ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ: «الْبَجَعَةُ الصَّغِيرَةُ! الدُّبُّ الصَّغِيرُ! هَلْ تَتَذَكَّرَانِنِي؟ مَرْحَبًا يَا بيتر!»

كَانَتْ هايدي فِي قِمَّةِ السَّعَادَةِ لِكَوْنِهَا بَيْنَ أَصْدِقَائِهَا الْقُدَامَى مُجَدَّدًا. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ. اسْتَلْقَتْ هايدي هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِقَلْبٍ سَعِيدٍ. كَانَ نَوْمُهَا هَادِئًا كَمَا لَمْ يَكُنْ مُنْذُ شُهُورٍ. اسْتَيْقَظَ الْجَدُّ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَلَى الْأَقَلِّ خِلَالَ اللَّيْلِ وَتَسَلَّقَ السُّلَّمَ لِيَرَى إِذَا كَانَتْ هايدي بِخَيْرٍ. وَلَكِنَّ هايدي لَمْ تَتَحَرَّكْ. لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا الْقَلَقُ حِيَالَ الْأَلَمِ فِي قَلْبِهَا. لَقَدْ سَمِعَتِ الرِّيَاحَ تَمُرُّ عَبْرَ أَشْجَارِ التَّنُّوبِ. لَقَدْ كَانَتْ فِي الْمَنْزِلِ عَلَى الْجَبَلِ مُجَدَّدًا.

فِي الصَّبَاحِ التَّالِي نَزَلَ الْجَدُّ إِلَى أَسْفَلِ الْجَبَلِ لِإِحْضَارِ صُنْدُوقِ هايدي. وَسَارَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ مَعَهُ حَتَّى كُوخِ الْجَدَّةِ ثُمَّ لَوَّحَتْ لَهُ وَانْطَلَقَتْ إِلَى الْبَابِ.

لَمْ تَكُنِ الْجَدَّةُ تَسْتَطِيعُ الِانْتِظَارَ حَتَّى تُخْبِرَ هايدي كَمِ اسْتَمْتَعَتْ بِرَغِيفِ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ وَكَمْ شَعَرَتْ بِالْقُوَّةِ بَعْدَ أَكْلِهِ. وَأَخْبَرَتْ وَالِدَةُ بيتر هايدي أَنَّ أُمَّهَا سَتَسْتَرْجِعُ بَعْضًا مِنْ صِحَّتِهَا بِالتَّأْكِيدِ إِذَا تَمَكَّنَتْ مِنَ الْأَكْلِ هَكَذَا لِمُدَّةِ أُسْبُوعٍ. وَلَكِنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تُبْقِيَ الْأَرْغِفَةَ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ؛ لِذَا أَكَلَتْ وَاحِدًا فَقَطْ حَتَّى الْآنَ.

فَجْأَةً ابْتَسَمَتْ هايدي وَهَتَفَتْ: «لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَالِ يَا جَدَّتِي. أَعْلَمُ مَاذَا سَأَفْعَلُ بِهِ! يَجِبُ أَنْ تَتَنَاوَلِي رَغِيفًا طَازَجًا مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ كُلَّ يَوْمٍ، وَرَغِيفَيْنِ يَوْمَ الْأَحَدِ. يُمْكِنُ أَنْ يُحْضِرَهَا لَكِ بيتر!»

أَجَابَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ: «لَا يُمْكِنُنِي تَرْكُكِ تَفْعَلِينَ ذَلِك. عَلَيْكِ إِعْطَاءُ الْمَالِ لِجَدِّكِ. وَهُوَ سَيُخْبِرُكِ كَيْفَ تُنْفِقِينَهُ.»

– «لَا، يَجِبُ أَنْ نَجْعَلَكِ قَوِيَّةً. سَنُحْضِرُ لَكِ هَذِهِ الْأَرْغِفَةَ! رُبَّمَا إِذَا أَصْبَحْتِ قَوِيَّةً سَيُضِيءُ كُلُّ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ لَكِ مُجَدَّدًا. رُبَّمَا يَكُونُ هَذَا الظَّلَامُ لِأَنَّكِ ضَعِيفَةٌ.»

بَيْنَمَا كَانَتْ هايدي تَقْفِزُ فَرَحًا، لَاحَظَتْ كِتَابَ تَرَانِيمِ الْجَدَّةِ: «أُوه، يَا جَدَّتِي أَسْتَطِيعُ الْقِرَاءَةَ الْآنَ! دَعِينِي أَقْرَأْ لَكِ تَرْنِيمَةً.»

أَشْرَقَ وَجْهُ هايدي بِالسَّعَادَةِ حِينَمَا ظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ نَظْرَةٌ لَمْ تَرَهَا الْفَتَاةُ مِنْ قَبْلُ.

فِي الْمَنْزِلِ أَخِيرًا

قَالَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ عِنْدَمَا أَنْهَتْ هايدي الْقِرَاءَةَ: «لَقَدْ أَضَاْءَتِ قَلْبِي يَا طِفْلَتِي الْعَزِيزَةَ. اقْرَئِيهَا مُجَدَّدًا. مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدُ.»

الفصل الرابع عشر

أَجْرَاسُ يَوْمِ الْأَحَدِ

قَالَتْ هايدي بَيْنَمَا كَانَتْ تَصْعَدُ هِيَ وَالرَّجُلُ الْعَجُوزُ الْجَبَلَ: «أُوه يَا جَدِّي. حَيَاتُنَا الْآنَ أَسْعَدُ بِكَثِيرٍ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.» قَفَزَتْ إِلَى الْأَمَامِ وَهِيَ تُؤَرْجِحُ يَدَ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ. فَجْأَةً هَدَأَتْ هايدي وَقَالَتْ: «عِنْدَمَا كُنْتُ فِي فرانكفورت كُنْتُ أَدْعُو اللهَ لِكَيْ أَعُودَ إِلَى الْمَنْزِلِ عَلَى الْفَوْرِ. وَلَوْ أَنَّ اللهَ تَرَكَنِي أَعُودُ عَلَى الْفَوْرِ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ سَيُصْبِحُ مُخْتَلِفًا. كُنْتُ سَأَحْصُلُ عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ الْخُبْزِ لِلْجَدَّةِ وَمَا كُنْتُ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْقِرَاءَةِ. لَقَدْ جَعَلَ اللهُ الْأَمْرَ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ سَأَتَخَيَّلُ أَبَدًا. لَقَدْ حَدَثَ الْأَمْرُ مِثْلَمَا قَالَتِ الْجَدَّةُ تَمَامًا. كَمْ أَنَا سَعِيدَةٌ أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلِ الْأَمْرَ يَحْدُثُ بِطَرِيقَتِي مُنْذُ الْبِدَايَةِ. مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا، سَأُصَلِّي لِأَشْكُرَ اللهَ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ أَجْلِي. وَعِنْدَمَا لَا يَفْعَلُ مَا أَطْلُبُهُ، سَأَقُولُ لِنَفْسِي إِنَّ اللهَ لَدَيْهِ خُطَّةٌ أَفْضَلُ لِي. سَنُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا جَدِّي؟ لَا يَجِبُ أَنْ نَنْسَى اللهَ أَبَدًا مُجَدَّدًا وَإِلَّا سَيَنْسَانَا.»

قَالَ الْجَدُّ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: «وَمَاذَا لَوْ نَسِينَاهُ بِالْفِعْلِ؟»

– «إِذَنْ سَيَئُولُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الْأَسْوَأِ. وَسَيَتْرُكُنَا اللهُ نَذْهَبُ إِلَى حَيْثُ نَشَاءُ وَسَنُصْبِحُ فُقَرَاءَ وَتُعَسَاءَ. وَلَنْ يَشْعُرَ أَحَدٌ بِالسُّوءِ مِنْ أَجْلِنَا لِأَنَّنَا هَرَبْنَا مِنَ اللهِ وَهُوَ الَّذِي يُفْتَرَضُ أَنْ يُسَاعِدَنَا.»

– «هَذِهِ حَقِيقَةٌ يَا هايدي. أَيْنَ تَعَلَّمْتِ ذَلِك؟»

– «مِنَ الْجَدَّةِ. لَقَدْ شَرَحَتِ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِي.»

سَارُوا لِفَتْرَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْجَدُّ مُجَدَّدًا: «أَلَا يُمْكِنُنَا الْعَوْدَةُ مَرَّةً أُخْرَى يَا هايدي؟ إِذَا هَرَبْنَا مِنَ اللهِ، هَلْ يَنْسَانَا إِلَى الْأَبَدِ؟»

– «أُوه، لَا يَا جَدِّي، يُمْكِنُنَا الْعَوْدَةُ. أَخْبَرَتْنِي الْجَدَّةُ بِذَلِكَ. كَمَا قَرَأْتُ قِصَّةً فِي كِتَابِيَ الْجَمِيلِ. سَأَقْرَؤُهَا لَكَ عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى الْمَنْزِلِ.» بَدَتْ هايدي سَعِيدَةً بِنَفْسِهَا، وَظَلَّتْ تُغَنِّي وَتَقْفِزُ فِي بَاقِي الطَّرِيقِ إِلَى الْمَنْزِلِ. وَقَبْلَ مَوْعِدِ النَّوْمِ مُبَاشَرَةً، قَرَأَتِ الْقِصَّةَ لِلْجَدِّ.

أَخْبَرَتْهُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي فِي الصُّورَةِ وَكَيْفَ كَانَ سَعِيدًا فِي الْمَنْزِلِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْحُقُولِ مَعَ قَطِيعِ وَالِدِهِ. كَانَ يَرْتَدِي عَبَاءَةً جَيِّدَةً وَيَقِفُ مُسْتَنِدًا إِلَى عَصَا الرَّعْيِ يُرَاقِبُ غُرُوبَ الشَّمْسِ. وَفَجْأَةً أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ مَتَاعُهُ وَأَمْوَالُهُ الْخَاصَّةُ. وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ سَيِّدَ نَفْسِهِ؛ وَلِذَا طَلَبَ مِنْ وَالِدِهِ أَنْ يُعْطِيَهُ بَعْضَ الْمَالِ. وَتَرَكَ مَنْزِلَهُ وَسُرْعَانَ مَا خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ. وَفِي النِّهَايَةِ عَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخْبَرَ وَالِدَهُ: «أَنَا لَا أَسْتَحِقُّكَ بَعْدَ الْآنَ.»

رَآهُ وَالِدُهُ فَجَرَى نَحْوَهُ وَقَبَّلَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ خَدَمَهُ أَنْ يُحْضِرُوا لَهُ أَفْضَلَ رِدَاءٍ، وَخَاتَمًا لِإِصْبَعِهِ، وَحِذَاءً لِقَدَمَيْهِ وَالْكَثِيرَ مِنَ الطَّعَامِ. وَقَالَ إِنَّ ابْنَهُ كَانَ مَيِّتًا وَالْآنَ عَادَ لِلْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى.

قَالَتْ هايدي: «أَلَيْسَتْ قِصَّةً جَمِيلَةً يَا جَدِّي؟»

أَجَابَ: «أَنْتِ عَلَى حَقٍّ يَا هايدي، إِنَّهَا قِصَّةٌ جَمِيلَةٌ.» وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْعَجُوزَ بَدَا جَادًّا جِدًّا حَتَّى إِنَّ هايدي نَفْسَهَا سَكَتَتْ.

بَاكِرًا فِي الصَّبَاحِ التَّالِي وَقَفَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ أَمَامَ كُوخِهِ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَمَالِ.

– «تَعَالَيْ يَا هايدي! لَقَدْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ! ارْتَدِي أَفْضَلَ فَسَاتِينِكِ. سَنَذْهَبُ إِلَى الْكَنِيسَةِ الْيَوْمَ!»

كَانَ مَنْظَرُ الِاثْنَيْنِ لَافِتًا فِي الْكَنِيسَةِ. تَسَلَّلَا إِلَى الدَّاخِلِ بَعْدَ أَنْ بَدَأَتِ الْمُوسِيقَى. نَظَرَ الْعَدِيدُ مِنَ النَّاسِ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوا مَنْ كَانَا. وَلَكِنْ بِحُلُولِ نِهَايَةِ الْقُدَّاسِ كَانَ الْجَمِيعُ قَدْ شَاهَدَ هايدي وَجَدَّهَا.

بَعْدَ انْتِهَاءِ الْقُدَّاسِ أَخَذَ الْجَدُّ هايدي مِنْ يَدِهَا وَاتَّجَهَ إِلَى مَنْزِلِ الْقَسِّ. وَوَقَفَ بَاقِي الْمُصَلِّينَ فِي مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ. كَانُوا جَمِيعًا يَتَهَامَسُونَ فِي شَأْنِ الرَّجُلِ وَكَمْ هُوَ لَطِيفٌ مَعَ هايدي. لَقَدْ أَخْبَرَ سَائِقُ الْعَرَبَةِ الْجَمِيعَ كَيْفَ تَرَكَتْ هايدي الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ لَدَيْهَا فِيهِ الْأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَقَطْ لِتَكُونَ بِجَانِبِ جَدِّهَا. وَسُرْعَانَ مَا بَدَأَ الْجَمِيعُ يَشْعُرُونَ بِالْوُدِّ تِجَاهَ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ الْجَدُّ قَدْ دَخَلَ بَيْتَ الْقَسِّ. تَصَافَحَا بِمَوَدَّةٍ. وَلَمَعَتْ عَيْنَا الْقَسِّ الطَّيِّبَتَانِ بِالْبَهْجَةِ.

بَدَأَ الْجَدُّ: «لَقَدْ جِئْتُ لِأَطْلُبَ السَّمَاحَ عَنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قُلْتُهَا لَكَ. لَقَدْ كُنْتَ مُحِقًّا. لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِنَقْلِ هايدي مِنَ الْجَبَلِ.»

قَالَ الْقَسُّ: «سَنُرَحِّبُ جَمِيعًا بِكُمَا كَجِيرَانٍ.» وَبِهَذَا خَرَجَ الْجَدُّ مَعَ هايدي إِلَى الْخَارِجِ. بِالْكَادِ انْغَلَقَ الْبَابُ خَلْفَهُ حَتَّى تَقَدَّمَتِ الْمَجْمُوعَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْكَنِيسَةِ كُلِّهَا نَحْوَهُ لِتُقَابِلَهُ. كَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْوُجُوهِ الْجَدِيدَةِ حَتَّى إِنَّ الْجَدَّ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ حَتَّى إِلَى مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ لِصُعُودِ الْجَبَلِ مَعَ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ. وَتَحَدَّثُوا عَنْ دَعْوَتِهِ إِلَى الْغَدَاءِ وَزِيَارَتِهِ قَرِيبًا.

لَمْ تَتَمَكَّنْ هايدي مِنْ تَصْدِيقِ النَّظْرَةِ الْعَطُوفِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى وَجْهِ جَدِّهَا: «تَبْدُو أَلْطَفَ الْيَوْمَ. لَمْ أَرَكَ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ.»

فَقَالَ: «حَسَنًا يَا هايدي، أَنَا الْيَوْمَ أَسْعَدُ مِمَّا أَسْتَحِقُّ. أَسْعَدُ مِمَّا كُنْتُ أَتَخَيَّلُهُ مُمْكِنًا. مِنَ الْجَيِّدِ أَنْ أَكُونَ فِي سَلَامٍ مَعَ اللهِ وَمَعَ الْأَصْدِقَاءِ. كَانَ اللهُ كَرِيمًا مَعِي عِنْدَمَا أَرْسَلَكِ إِلَى كُوخِي.»

عِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى كُوخِ الْجَدَّةِ، فَتَحَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ الْبَابَ وَدَخَلَ مَعَ هايدي، وَهُوَ يَقُولُ: «لَدَيْنَا الْمَزِيدُ مِنَ التَّصْلِيحَاتِ لِلْقِيَامِ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْخَرِيفُ.»

انْدَفَع بيتر عَبْرَ الْبَابِ وَقَطَعَ حَدِيثَهُمْ.

هَتَفَ: «هُنَاكَ خِطَابٌ هُنَا لهايدي!»

كَانَ هَذَا الْخِطَابُ مِنْ كلارا. كَانَ يَقُولُ إِنَّهَا وَالْجَدَّةُ تُرِيدَانِ زِيَارَةَ هايدي وَجَدِّهَا فِي الْخَرِيفِ الْقَادِمِ.

كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ لِلتَّفْكِيرِ فِيهِ الْآنَ: الزُّوَّارُ وَالِانْتِقَالُ إِلَى دورفلي وَالطَّرِيقَةُ الْمُمَيَّزَةُ الَّتِي بَدَا أَنَّ الْجَدَّ يَنْسَجِمُ بِهَا مَعَ الْآخَرِينَ. لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ بِالتَّأْكِيدِ عَلَى الْجَبَلِ، وَقَرِيبًا سَتَتَغَيَّرُ أَكْثَرَ.

الفصل الخامس عشر

زِيَارَةٌ أَخِيرًا

لِلْأَسَفِ، مَنَعَ ضَعْفُ الصِّحَّةِ كلارا مِنَ الْقِيَّامِ بِالرِّحْلَةِ إِلَى الْجَبَلِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِحْبَاطِهَا، حَاوَلَتْ أَنْ تَقُومَ بِثَانِي أَفْضَلِ شَيْءٍ. فَاتَّفَقَتْ هِيَ وَوَالِدُهَا عَلَى أَنَّ إِرْسَالَ الطَّبِيبِ فِي إِجَازَةٍ صَغِيرَةٍ لَنْ يُفِيدَ هايدي فَحَسْبُ وَلَكِنْ سَيُفِيدُ الطَّبِيبَ الْكَبِيرَ أَيْضًا. كَانَتْ زَوْجَةُ الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ قَدْ تُوُفِّيَتْ مُنْذُ فَتْرَةٍ، كَمَا تُوُفِّيَتِ ابْنَتُهُ مُؤَخَّرًا أَيْضًا. وَبِبَسَاطَةٍ لَمْ يَعُدِ الطَّبِيبُ هُوَ الشَّخْصُ نَفْسُهُ مُنْذُ ذَلِك الْحِينِ.

عِنْدَمَا سَأَلَ السَّيِّدُ سيسمان الطَّبِيبَ إِذَا كَانَ يُمْكِنُهُ الذَّهَابُ إِلَى الْجِبَالِ، قَالَ الطَّبِيبُ إِنَّهُ سَيَكُونُ شَرَفًا لَهُ. سَيَأْخُذُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ الرَّائِعَةِ الَّتِي حَزَمَتْهَا كلارا إِلَى أَصْدِقَائِهَا وَسَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى الْجَمِيعِ سَالِمَةً. كَانَتْ كلارا قَدِ اخْتَارَتْ هَدَايَا لِلْجَدَّةِ وَلِلْجَدِّ وَحَتَّى لِبيتر.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ فِي مَنْزِلِ هايدي، كَانَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ تَسْتَيْقِظُ مُبَكِّرَةً كُلَّ صَبَاحٍ. وَتَرْتَدِي مَلَابِسَهَا بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُ ثُمَّ تُسْرِعُ إِلَى الْخَارِجِ لِتَنْتَظِرَ. كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى أَبْعَدِ مَا يُمْكِنُهَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. كَانَ هَذَا هُوَ رُوتِينُهَا كُلَّ صَبَاحٍ لِمُدَّةِ أُسْبُوعٍ الْآنَ. كَانَتْ تَنْتَظِرُ وُصُولَ كلارا وَالْجَدَّةِ فِي أَيِّ يَوْمٍ وَكَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَعِدَّةً عِنْدَمَا تَصِلَانِ.

وَلَكِنْ عِوَضًا عَنْ كلارا سَمِعَتْ صَفِيرَ بيتر، وَسَأَلَهَا: «هَلْ يُمْكِنُكِ الْمَجِيءُ مَعِي لِلْخَارِجِ الْيَوْمَ؟»

أَخْبَرَتْ هايدي صَدِيقَهَا أَنَّهَا لَنْ تَسْتَطِيعَ، فَقَدْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ ضُيُوفًا. فَأَصَابَ بيتر الْإِحْبَاطُ، وَلَكِنَّ هَذَا الصَّبَاحَ كَانَ الِانْتِظَارُ يَسْتَحِقُّ.